■■ الجدة الكبرى للقصة

« احك لى حكاية » عبارة تتردد على لسان الطفل فور ان يتعلم الكلام كما يقول شاعر الهند العظيم رابندرانات تاجور . لكن هل فكرنا يوما فى البحث عن جذور هذه العبارة ؟ .. لقد حاول تاجور نفسه ان يعبر نشأة الحكاية والحاجة اليها فكتب مقالا قصيرا طريفا باللغة البنغالية ، نقله الى الانجليزية بهاماني بهاطاشاريا وصدرت به سلسلة « سيجنت » الأمريكية أحد مختاراتها من القصص العالمى .

وقد اتخذ تاجور العبارة السابقة عنوانا لمقاله ، وراح باحساسه الشعرى يعبر الفطرة ، وان بدا فى تفسيره شىء من المجاز فرضته عليه طبيعته الخيالية الرقيقة . فهو يعتقد أن ثمة صراعا فى راس الطفل بين رغبته فى معرفة « **قصة الأمير وصديقه ابن الوزير فى سالف الأزمان** » من جدته ، والحاح المدرسين على حشو عقله بالمعلومات والحقائق . ولئن كان المدرسون ينتصرون على الجدة ويكونها الا ان رواة القصص والحكايات لا يستهون ، بل يحل كل محل الآخر بلا نهاية . ورغم أن المحاولات لا تكف لاصلاح الطفل من المدرسة الابتدائية الى الثانوية ، ومن هذه الى الجامعة ، لكن ما من شىء يقادر على الوقوف فى سبيل حاجته التى تلخصها عبارة « احك لى حكاية » ـ .

ان الحكايات والقصص كما يقول تاجور تتواتر من عام لآخر فى كافة انحاء الارض ، وفى كل بيت كتابة او شفاهة ، وتثقل كفتها وترجح على كل تراث آخر

للانسان ، والله جل جلاله فنان مبدع خلق الانسان الذى تحركت حياته منذ البدء داخل مواد القصة وعناصرها ، داخل دوامات انشاها الصراع بين العاطفة والعاطفة، بين الفرد والمجتمع ، بين العقل والجسد ، بين الرغبة والاباء .

واذا كان النهر مجرى جاريا للماء فكذلك الانسان مجرى جار للقصة . ذلك لانه حين يلتقى شخصان فان سؤالا بعينه لا يلبث ان يحل متخذا احدى صيغتين :

- **ما الاخبار ؟**
- **ماذا من احداث ؟**

اما اجابات هذا السؤال بصيغتيه فقد نسجت شبكة تعم الارض وتغطيها وهى شبكة تشكل قصة الانسان وتاريخه الحقيقى ، ذلك التاريخ الذى تشارك فيه القصة جنبا الى جنب مع الابطال الذين يصنعونه .

لكن ، هل يعنينا ما قاله تاجور باسلوبه المجازى هذا من تتبع المزيد من الضوء على الحكاية الشعبية المنطوقة التى تعتبر اليوم اصلا ثابتا من اصول القصة المكتوبة بشكلها الحديث ؟

لقد جمع دارس امريكى ، هو ميلتون روجف ، نحو مائتى حكاية شعبية مسجلة ومترجمة عن لغات مختلفة لشعوب مختلفة فى افريقيا واوربا وآسيا والامريكتين وحاول ، ان يقدم هذه المجموعة المتنوعة ، فكتب لها مقدمة بعنوان « ملحوظة فى الحكايات الشعبية » ، فماذا قال ؟ ..

طبيعى أن يستهل روجف مقدمته بالاعتراف بقدم الحكايات الشعبية وعراقتها ، واتساع مجال جاذبيتها ، ومن ثمة فهو يؤكد بالتالى ان هذا الجنس الادبى المتميز لا يرتبط بزمن معين ولا بمكان معين من حيث النشأة والولادة ؛ وانه اذا كانت الاجناس الادبية الاخرى كالقصة والشعر لا تشعر الا بين العلة المتادية ، اى بين جمهور محدود ، فان جمهور الحكاية الشعبية هو البشرية جمعاء .

ولعل المرء لا يملك ــ كما يقول روجف ــ الا ان يعجب ويتساءل : من خلق هذه الحكايات ، ومتى ؟ لكن سؤالا كهذا يشقيه لم يجد حتى اليوم من يجيب عنه اجابة شافية . ذلك لان الحكايات لا تنتمى لافراد بقدر ما تنتمى الى جماعات ، ولم تتداول أو تصلنا الا بطريق الكلمة المنطوقة ، مما يضيف اليها طابع السر المغلق الذى يشدنا دوما لاكتناهه .

وكثير من آثارها يظهر فى السجلات المصرية منذ الف وستمائة سنة قبل الميلاد ، وفى الكتابات والنقوش الهندية واليونانية والفارسية والعبرية قبل اكثر من الفى سنة . ومع هذا كله لا يستطيع احد ان يدلنا على عمرها الحقيقى .

وينتقل روجف الى قضية اصل الحكاية الشعبية ، فيقول ان البعض زعم أن اصلها خرافة من خرافات الطبيعة او اساطيرها ، ومحاولة بدائية لتفسير ظاهرة طبيعية ما ، فوليم تل مثلا لم يكن الا آخر انعكاس لاله الشمس الذى كان يضرب التفاحة او اى هدف آخر بقوسه الخارق الذى لا يخطىء . وزعم آخرون ان الحكاية

امتداد للاحيله العملية الوحشية فى الانسان . بل ان البعض لازال يعتقد انها فى الاصل من وضع رواة شعبيين متاديين محترفين ، وانها انتقلت حين تداولتها شعوب غير متحضرة ، اى انه كان لها مؤلفون معروفون طمسهم التداول الشعبى لها فى السنات غير المتحضرة ، بل ان الكثيرين زعموا حين اشد ساعد التحليل النفسى ان مصدرها الأحلام قياسا على استنتاجات فرويد وتلاميذه . ومع هذا كله انتهت هذه القصية دون اتفاق .

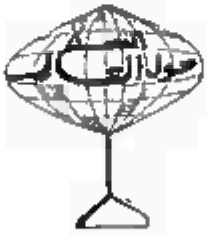

أما قضية المكان الذى نشأت فيه الحكاية فقد اختلف دعاتها كما اختلف رملاؤهم فى تحديد اصل الحكاية من الناحية العنية . فقد اعتقد الاخوان جريم انها نشأت فى الأصل داخل ثقافة ذات اب اندوجرمانى ثم انتقلت الى الثقافات الاخرى وفى اندرولايح انها انبثقت فى عدة امكنة وكان لها فى كل منها شخصية مستقلة . وزعمت مدرسة ثالثة أن الهند هى رحم الفن القصصى باسره . ومرة أخرى انتهت هذه القضية بدورها دون نتائج محددة شافية .

غير ان الاهتمام الادبى الواعى بالحكاية لم يبدأ فى الحقيقة كما يقول صاحب المقدمة الا فى مطلع القرن الثامن عشر . فقد نشر شارل بيرو مجموعة حكاياته الأولى المسماة « الأوزة الأم » عام ١٦٩٧ . وبعد سنوات نشر رميل فرنسى له هو انطوان جالاند أول ترجمة لألف ليلة وليلة العربية . واصبحت « الموضة » فى ذلك الحين هى الاعتراف من تراث الشرق ، وخاصة هذه الليالى العربية وما فيها من ثراء وخصوبة فى الخيال .. وتبع ذلك جمهرة من المجموعات المماثلة بلغت ذروتها فى المجلدات الواحد والاربعين من كتاب « كابينه الجن » . غير ان المجموعات التى تسعى الى تسجيل الحكايات كما يحكيها اصحابها لم تبدأ فى الظهور الا فى القرن التالى ، اى فى القرن التاسع عشر . وكانت اولاها عام ١٨١٢ للأخوين الالمانيين ولهلم وجاكوب جريم ، وبعدها تدفقت مجموعات وترجمات اخرى كثيرة ، حتى اصبحت الحكايات الشعبية اليوم وما تثيره من قضايا المكان والزمان والنشأة ، رغبة طلابية جامحة .

لكن هل توقفت الحكايات ؟ وهل اقتصرت على ما جمع وسجل منها ؟ .. ـ الجواب هو النفى القاطع بالطبع . ذلك لان الناس والشعب لم تكف عن الحكى ، رغم أن الحكايات قد حملت لدى الشعوب المتحضرة من نصيب الأطفال ، أو من نصيب الدارسين والطلاب ، ومن جهة أخرى أدى نشوء القصة الأدبية المكتوبة وانتشارها فى القرن الماضى الى تقليل الاهتمام بالحكايات المنطوقة أو مطالعتها مبسطة ومكتوبة .

وقد نشأ مرة أخرى ان عالم تحلقه الحكايات ، أو ما عالمها ؟ وللاجابة على هذا السؤال ينبغى أن نضع فى اعتبارنا نمطين على الأقل من هذه الحكايات أولهما

هو حكاية العجائب التي تدور في عالم السحر حيث يعيش السحرة والآلهة والجن . وتاليهما يدور في العالم الواقعي ويعتمد في احداث تأثيره على المهارة والذكاء بشكل عام .. وفي النمط الأول نجد مملكة تسودها اخلاقيات معينة ؛ اهمها ان العدالة تتجلد مفهوما شعريا أكثر مما في الشعر نفسه ، وان الرحمة تولد العمل ؛ وان العمل يدين للرحمة دينا ، بينما الشر في هذه المملكة وقف على المساكين والأبرياء والشجعان والعدليين ، والهزيمة وقف على الأشرار والظالمين .

بل ان هذا النمط من الحكايات الذي يقوم على السحر والمعجزة يبدأ بعالم الواقع ، حيث نجد الفقراء يعانون ويتعذبون والمساكين يداسون بينما الشجعان والعادلون يولدون وفي أفواههم ملاعق من ذهب . وعالم كهذا يتطلب أن تزال العوائق والعقبات ، وان يبطل العمل بالعقل والمنطق . كما انه يتطلب السحر ، وبالتالي لابد أن تطير الأبسطة وتتنبأ الطيور ، وتملأ أعطية الموائد الطعام دون حاجة الى مطبخ أو طباخ ، وتحفظ الحقائب الرياح ، وتقول المرايا الحق ، ويصبح الأوز بيضا ذهبيا ، وبعث الموتى احياء ، وتأتي الكلمات بالمعجزات اذا تكررت ثلاث مرات .. وهكذا نجد ان التفكير في الرغبات هو الحكمة الوحيدة ، وان المعجزات هي الخبز اليومي . ولو امكن التعميم لكانت الحكايات الشعبية قصص نجاح بالمعنى الحديث ، وهو نجاح لا يتحقق بفضل الجدارة او الاجتهاد ولكنه يتحقق بفضل السحر أو الحظ او المكر . ولعل في هذا ما يفسر الاستجابة التي تلقاها الحكايات الشعبية لدى جماهير البشرية جمعاء ، ولدى كل انسان تعيس ، معذب ، سيء الحظ .

وثمة انماط أخرى للحكايات الشعبية بالطبع الى جانب حكاية المعجزات والسحر والأبطال الخارقين والبطلات اللواتي لا يسمين للأرض اذ يوجد بصفة خاصة نوع يعالج امور البسطاء واساليب فهمهم وتحليلهم من المأزق . ولا يدور هذا النوع حول اناس ماكرين اذكياء فحسب ، ولكنه يدور ايضا حول الأغبياء والحمقى .

غير أن روجف لا يغفل عن الاشارة الى مظاهر التشابه الكثيرة التي نلمسها في الحكايات الشعبية بشكل عام ، سواء كانت عربية او غربية او هندية . ذلك لان ثمة تشابها ـ قد يتضاءل او يعظم ـ بين عناصر الحكايات واحداثها ؛ بحيث اذا ترجمنا الأسماء احيانا وغيرنا الأزياء من لغة الى لغة ، ومن شعب الى شعب ، لما كان هناك فارق كبير .

أما الذي يقل شيوعه في الحكايات الشعبية فهو الحيوانات . فيبدو أن الشعوب القديمة بلا استثناء كانت تؤمن بوجود علاقة دم ترتبط بالحيوانات ؛ ومن ثمة بدرت الاساءة الى الحيوان ـ فهي اكثر انماط حكاية الحيوان شيوعا ؛ وهي الخرافة . نجد أن الحيوانات المسكينة تصور على انها شديدة الصلة بالانسان والانسانية في تصرفاتها وعواطفها ـ فهي تعيش في حقل او غابة ؛ لكنها تفكر وتتكلم وتتصرف كالكثير من الرجال والنساء .

ويختتم روجف مقدمته هذه بالاشارة الى حظ الحكايات الشعبية من الشهرة والذيوع . فيؤكد انها تشهر وتموت شأنها في ذلك شأن القصص المؤلفة التي كتبها ادباء محترفون . غير أن افضل الحكايات الشعبية ، او على الأقل اشهرها ، لها قدرة على البقاء ، وهي قدرة تبدو وجودها في الأعمال الأدبية ذاتها ولعل هذا

سبب امكانية ذيوعها على الدوام فى القصور والبيوت واكواخ الفلاحين ، وفى خيال الغانين ، وفى نسيج كثير من الثقافات .

لكن ، تبقى مشكلة يثيرها كثيرون من المتخصصين للآداب المكتوبة ، اذ يحسون بان الحكايات الشعبية سيجرىء عليها وقت تلقى فيه الهجر والنسيان ، وربما تترك مكانها تماما للقصص التى يكتبها المحترفون من الأدباء والكتاب ، وذلك كله بفعل انتشار التعليم والثقافة والقضاء على الأمية . لكن مما يحمد للحكايات الشعبية ان كثيرا من قديمها قد عاش وعمر طوال عدة حضارات ، حتى الى حنب مع عدد آخر لا يحصى من القصص الأدبية التى ابدعها رجال اعتبرهم التاريخ من خالدة الفن ولا شك انها ستواصل دوامها طالما ان للناس احلاما ، وانهم لا يحتاجون لمن يرخص لهم بسرد ما شاهدوه فى أحلامهم .

والحق ان هذه الملحوظات التى ابداها ميلتون روجف فى تقديمه لمنتخبه من الحكايات الشعبية ملحوظات ذكية خرج بها من سياحته الطويلة مع هذا اللون من الابداع الفنى الذى لا ينتمى لمؤلف بعينه ، والذى نجد فى كثير من نماذجه عناصر راقية من الخيال الخصب الخلاق ، والادارة الذكية للمواقف والاحداث ، والحق ايضا انه لولا وجود هذا اللون لما نشأت القصة القصيرة المكتوبة او الرواية اللتان افادتا كثيرا من اساليب الحكاية .. الجدة الكبرى لفن القصة .

« باريس »

● آخر جزء من الأعمال الكاملة للكاتب التشيكى فرانز كافكا صدر بالفرنسية عن دار حلفة الكتاب الثمين .. سبق ان اصدرت الدار ٧ اجزاء منها .

« موسكو »

● ظهرت فى موسكو الترجمة الروسية لرواية « الباب المفتوح » للطبيعة الزيات ـ نقلها عن العربية أ . جورو دتسكايا ول . مدفدكو ، وقدم لهما ف . مدفيديف . الطريف أن مجلة الأدب السوفييتى التى نشرت الخبر كتبت اسم المؤلفة محرفا ، فاعتبرتها « لطيفة الزيات » ، وربما لازم الخطأ الترجمة نفسها !

« لندن »

● سلسلة جديدة بعنوان « كتب عالمية » أعلن عنها نادى الكتاب فى لندن .. وتستهل السلسلة حياتها بمجلد من ٤٠٠ صفحة يضم جميع قصص هيمنجواى القصيرة البالغ عددها ٤٩ قصة .. بسعر ٥ شلنات فقط .

« ايرلنـــدا »

● بعنى أنا ! .. عنوان طريف اختاره الكاتب الايرلندى المعروف شون أوفاولين لسيرة حياته التى صدرت عن دار هارث داڤير بلندن ، وفيها يحكى قصة حياته ونضاله فى سبيل قضية بلاده ، واتصاله بأدبائها المعروفين وعلى رأسهم الشاعر وليم بتلربيتس .

« باريس »

● من الترجمات القصصية التى نشرت بباريس رواية « الرأس » للكاتب ارنست أوجنن عن الألمانية وقد نشرتها دار جاليمار ، ورواية « العشاء » للكاتبة الأمريكية مارى ماكارثى ونشرتها دار جوازيه .

« الاتحاد السوفييتى »

● الرجال يبقون رجالا .. عنوان الرواية الجديدة للكاتب السوفيتى بورى بيلياڤ الذى عرف بروايتيه « كل هذا حقيقة » ، ومسرح الروايتين هو معسكرات الاعتقال الألمانية زمن الحرب الأخيرة . وقد علقت مجلة الأدب السوفييتى على أبطال بيلياڤ فى روايته الجديدة فقالت : انهم « يعانون ويتعذبون لكنهم لا يفقدون تماسكهم الروحى أو ايمانهم . انهم يتحطمون لكنهم يجددون طريقهم من جديد . ذلك لأن الانسانية تقوى خلال النضال ضد اللاانسانية والضعف .. والمؤلف لا يعلق على الأحداث ، ولا تسعى القصة على طريقة « النهاية السعيدة » التقليدية . فالرجال يبقون رجالا ـ وهذا هو السبب الذى يجعل النصر حليفهم فى النهاية » .